ما بعد الهيرمينوطيقا الحديثة: من فعل الفهم إلى فعل البناء في ذات القارئ

- استقراء لأراء بول ريكور (Paul Ricour) النقدية -

طالب الدكتوراه / محمد حكيمي

جامعة الجلفة

الملخص:

تتناول هذه الدراسة الأدب في إطار العملية التأويلية وفعل التأويل بعد تلقي واستقبال و قراءة النص الأدبي من طرف القراء و كيفية تفاعل الذات مع الأدب ، على ضوء المفاهيم التي جاء بها بول ريكور في ما يعرف بالتأويلية الحديثة و تجاوزها إلى مرحلة المابعد ، حيث إن الشروع في قراءة و تأويل النص الأدبي و فهمه لابد أن يكون له أثر بالغ على ذات القارئ ، هذا إذا ما نظرنا إلى العملية التأويلية كوسيط تتعرف و تتماها بها الذات القارئة مع ذاتها ؛ لأن قراءة و تأويل النص في حقيقة الأمر هو اتخاذ موقف معين إزاءه بعد قراءته وهي مرحلة تمثل مدى تفاعل و تأثر المتلقي بالنص الذي تلقاه .

وعليه يقدم بول ريكور مجموعة من المفاهيم و المراحل التي يمر بها القارئ أثناء و بعد قراءته و تأويله للنص الأدبي ، تبدأ هذه المراحل بارتياب الذات القارئة من الموضوع ، ثم انفهام الذات أمام النص ، و كذا تملك الذات لموضوع النص و ضمه لخبراتها و وعيها الخاص ، كما يؤكد بول ريكور على قدرة السرد في برمجته للمتلقي ، و رؤيته للترجمة على أنها فرصة لمعرفة فكر الآخر و من ثم تعرف الذات المؤولة على ذاتها .

الكلمات المفتاحية : التأويل ,الأدب , النص الأدبي , الذات , القارئ , بناء الذات القارئة.

Abstract:

This study is about the process of interpretation and the act of interpreting in the framework of receiving and reading the literary text by readers through the concepts brought by Paul Ricoeur in what is known as the new hermeneutics. Since interpreting the text and understanding it has a deep impact on the reader. That is, if we look at the interpreting process as a medium used for the reading self to know itself more, for interpreting a text is in fact taking a stand from it after reading it which is a phase that represents the degree of reaction and affection of the reader by the text one reads.

That's why Paul Ricoeur introduces a number of concepts and phases the reader passes by when and after reading the literary text. These phases start by the uncertainty of the reading self from the topic, then understanding of the self in front of the text and the self owning the topic of the text and adding it to its experiences and self conscious. Paul Ricoeur asserts the power of the narrative in programming the reader. He sees translation as a chance to know the thinking of the other and then the interpreting self knowing itself.

Keywords: interpretation, literature, literary text, self, reader, self-building reader.

تمهيد:

مع مجيء بول ريكور تغيرت مهمة الهِرْمينوطيقا **l'herméneutique** [1*]، فلم تعد على يده أداة لتفسير النصوص والحياة والعالم والكينونة ، وفهمها فحسب ، بل ولفهم الذات القارئة المؤولة لذاتها أيضًا"[2]، وهذه التأويلية الحديثة حسب ريكور تقر بأنه ليس هناك فهم للذات بدون وساطة للعلامات و الرموز[3] اللغوية الموجودة في النصوص الأدبية. ذلك أن الذات تفهم وتتعرف على نفسها من خلال تأويلها للنصوص الأدبية ، باعتبار هذه النصوص مجموعة من العلامات والرموز اللغوية فإنها بمثابة الوسيط الذي يعكس للذات حقيقتها.

وليس هذا فحسب ، بل إن الفهم عند ريكور " لا يعكس كيفية وجودنا في العالم بقدر ما يكشف لنا عن إمكانيات أخرى لوجودنا في هذا العالم ، لم تكن نعرفها أو نعيها قبل الشروع في عملية الفهم والتأويل، ضمن فعل القراءة، وهكذا يغدو الفهم صيرورة وعي **deveni conscient**، بدل أن يكون حضورا كليا للذات الواعية "[4]، فنحن نفهم أنفسنا بالتدريج مع التقدم في عملية القراءة ، وليس دفعة واحدة ، ثمّ إن وعي الذات بذاتها لا يمكن أن يتشكل وينبثق في ذهن القارئ بشكل كلي ، بل بالتدريج حسب ما ينتجه فعل التأويل القائم على النص ، ونلتمس هنا فعل البناء في الذات القارئة وذلك بتشكيل وبناء وبلورة وعي هذه الذات بذاتها ، إنها صورة تكتمل على مشارف كل قراءة في ذهن وذات كل متلقي أثناء وبعد كل قراءة .

و عليه فإنّ ريكور يشير إلى " أن النص هو بمثابة الوسيط الذي نفهم عبره أنفسنا فهو يُمَدِّدُ الخاصية الأساسية لكل خطاب ، من حيث إنه يكون مُوَجهًا إلى شخص ما لكي يفتح

الطريق لقرائه من أجل مواجهته الذاتية الخاصّة لهم "[5]، وذلك أن النص يواجه قراءهُ بحقائقهم كما هي ، إنها بمثابة مواجهة الذات لذاتها بحقيقتها وذلك بتوسط النص بينهما.

وعلى عكس الديكارتيين وأعلام الهرمينوطيقا الآخرين، فإن اهتمام ريكور الهرمينوطيقي كان قائمًا على هذين التساؤلين :

أ- ما هذه العتمة أو تلك الكثافة المعتمة للذات ذاتها ؟. ولماذا لا تستطيع أن تفهم ذاتها إلا عن طريق تأويل الحكايات الثقافية الكبرى ؟ .

ب- وما هي مكانة العملية التأويلية التي تقوم بدور الوسيط بين الذات وذاتها في هذا العمل التأويلي الفكري ؟[6].

1-ارتياب الذات القارئة :

و يعتبر الارتياب عنصرًا مهمًا في علاقة الذات القارئة مع الموضوع، وإذا ما أردنا أن نخوض في هذا المفهوم، فعلينا أن ننطلق من مسلمة وهي أن المعنى الأدبي يبني الذات القارئة ويحدث ذلك بالتحديد أثناء تأويل الذات القارئة للمواضيع، ذلك أن العملية التأويلية بمثابة وسيط تتعرف الذات على ذاتها من خلال فعل التأويل، ومبدأ الارتياب يقع في جهة الذات القارئة أثناء تأويلها للنصوص، وهو بمثابة موقف الشك الذي يتخذه القارئ إزاء الموضوع، لأن هذا الموضوع أو المعنى الكامن فيه وباعتباره هو الذي يبني الذات، يكون مضلَلاً ومخفيا وغير معطى بسهولة.

و الأكيد أنّ فعل البناء الذي نتكلم عنه، هو بناء رمزي لأن الفضاء الذي يحدث فيه البناء هو كذلك فضاء مجرد، هو فضاء الذات القارئة، وعليه فلا كل معنى يَبْني الذات ولا كل ذات قارئة تستطيع أن تتوصل إلى هذا المعنى بسهولة وبشفافية، ومن هذا المنطلق قدم ريكور مبدأ الارتياب، لأن المعنى الذي تبحث عنه الذات القارئة يكون كامنا في الرموز والعلامات اللغوية، مما سيؤدي في كثير من الأحيان إلى فشل الذات في الوصول إلى المعنى الحقيقي،خصوصًا وأن هذا المعنى المتوصل إليه إذا كان خاطئًا سيكون شكل البناء في الذات القارئة محرفًا ومشوهًا، وغير صحيح، وبالتالي لن تتوصل الذات القارئة إلى المعرفة الحقيقية لذاتها.

و هذا ما دفع ريكور لتقديم مبدأ الارتياب كنشاط احترازي للذات القارئة لكي لا تقع في فخ الرموز والعلامات النصية الخادعة، وأن لا تسلم نفسها إلى النص بشكل مطلق ويقر ريكور" أن العامل الأساسي الذي قاده إلى طرح مشكلة تعددية التأويلات وصراعاتها : أي إمكانية وجود قراءات أخرى للنص تكون مختلفة تمامًا، يكمن في الجدل الدائم بين الثقة وعدم الثقة في النص، وهو الارتياب الذي يعود إلى جذور نيتشوية وفرويدية وماركسية * ولا يعني هذا الارتياب الشك المطلق في النص أومجموع الرموز والعلامات التي يستعملها، وإنما يعني بكل بساطة أن نتعامل مع الرمز باعتباره حقيقة زائفة لا يجب الوثوق بها، بل يجب إزالتها وصولاً إلى المعنى المخفي وراءها "[7] .

و لكن إن المعنى الحقيقي للارتياب والمعنى الأهم هو أن الذات القارئة بعيدة عن إدراك ذاتها وفهمها، وأنها لا تمارس وجودها الحقيقي ، ولا تفهم ذلك الوجود إلا من خلال الفضاءات الرمزية الدلالية "[8]، ومن هنا كان لزامًا علينا أن نقارب النص - نحن القراء - بطريقة نقدية ارتيابية، حتى يتسنى لنا أن نسمع رسالته وبلاغته ، وحتى لا ندع فهمنا المسبق وقناعاتنا المسبقة تغشي على الحقيقة وتحجبها "[9]، وهذا يعني أنه يجب على الذات القارئة حتى تفهم نفسها أن تنغلق على العالم الواقعي والخارجي وتنفتح على العالم الداخلي للنص، وليس هذا فحسب لأن الذات القارئة في هذا الصدد تكون في حالة ارتياب من عالمها الخارجي، بل وفي حالة ارتياب أعمق تكون تجاه النص و ذلك للوصول إلى معرفة حقيقية وخالصة.

ومن هنا كان فهم الذات حسب ريكور" يمر عبر فهم رموز تلك الذات اللاشعورية (الحلم، النكتة، فلتات اللسان ... عند فرويد) أو الإيديولوجية (أشكال الوعي الاجتماعي) أو الرمزية (أشكال التعبير الثقافي من أدب وفن ...) وهذا لكشف الزيف الموجود في الرمز والوصول إلى المعنى الحقيقي الخفي"[10]،الذي بانكشافه تتكشف حقيقة الذات القارئة أمام ذاتها ويكتمل أو يعاد بناء وعي الذات بذاتها من جديد .

و يتضح لنا مما سبق أن الذات القارئة في نظر ريكور،" لا يمكن أن تفهم ذاتها إلا عن بُعد وبواسطة التباعد، ولا يمكن أن يتحقق لها ذلك داخل التأمل الذاتي المباشر... ودون وساطة الرموز والعلامات والآثار الثقافية "[11]، فهذا الأمر يستدعي دائمًا وسيطًا يحرض

ويحفز ويحرك عملية الفهم، لتكتمل صورة الذات القارئة الواعية بنفسه، والتباعد يعني أن لا تعود الذات إلى نفسها بشكل مباشر ،بل يقتضي هذا الأخير أن يكون بين الذات ومعرفتها لنفسها بعدًا يملأه وسيط معين وهو النص وبشكل أدق المعنى الكامن في هذا النص حتى يعكس للذات صورتها الحقيقية .

و هكذا نستنتج أن ارتياب الذات القارئة من النص هو حالة شعورية صحية تجعلها تتوصل إلى المعنى الحقيقي لهذا النص، ومن ثم معرفة ذاتها وفهم واقعها وبناء وعيها بذاتها بشكل صحيح .

2- **انفهام الذات القارئة أمام النص :**

ونكون في هذا الصدد أمام مبدأ الانفهام وهو مسلمة ريكور الأساسية، " إذًا الانفهام أو فهم الذات، أو الفهم الذاتي للذات، هو الانفهام أمام النص الذي تستقبل منه حالات أخرى للذات غير الأنا (**moi**) الذي يباشر القراءة، والأنا هنا هو ذات بلا هويّة أو زمن (ينتظر حلول ذاته عليه من خلال النص)، أما حالات الذات المختلفة والمنعكسة في مرآة النص فهي كطيف ذي ألوان متعددة لضوء واحد هو ضوء الذات القارئة "[12]، وتجدر الإشارة هنا إلى أن النص لا يعكس ماهية الذات القارئة فقط، فهنا لم يقدم الكثير، ولكن يعطيها زيادة على ذلك ماهية خاصة بها في هذا الوجود .

و تفهم الذات ذاتها من خلال التأمل الذاتي الحصيف وهو في رأي ريكور الذي تكون خاصيته تأسيس التطابق بين المتأمِّل (الذات) والمتأمَّل فيه (الموضوع) أو النص بحيث أنّ موضوعات المتأمَّل فيه هي رموز ووسائط تقود إلى الذات أكثر من إحالتها على نفسها، وهو ما يجب أن نستثمره في مشروع استعادة الذات في كليتها بتأويل هذه الرموز"[13]، وهذا هو مسعى ريكور أن يكتمل وعي الذات بذاتها ومن ثّم بناء ذات قارئة كاملة في كليتها .

و هذا يعني أنّ فهم النص لا يكون غاية في ذاته بل يتوسط علاقة الذات بذاتها، ويعني كذلك أن تأويل النص لا يكتمل إلا بتأويل الذات المؤولة لذاتها حينما تتمكن من فهمها بشكل أفضل ومغاير، وبهذه الكيفية يربط ريكور بين فهم النص وتأويله وفهم الذات وتأويلها "[14]، فنحن لا نفهم أنفسنا إلا بخفايا العلامات البشرية المبثوثة في الآثار الثقافية من خلال النصوص، ماذا كنا سنعرف عن الحب والكراهية، عن الأحاسيس عن الأخلاق

وبصفة عامة عن كل ما نسميه ذاتًا، لو لم يُنقل ذلك الكلام، ولو لم يبين بالأدب "[15]، وفي هذه النقطة بالذات نلاحظ أن ريكور قد أهمل تجارب الحياة الواقعية فهي كذلك تُتيح لنا فرصة لمعرفة ذواتنا.

كما أن الفهم هو فهم الذات أمام النص (مبدأ الانفهام)، كما لم يَعُدْ يعني قط فرض قدرة الفهم المحدودة الخاصة على النص، إنها المخاطرة بالنفس أمام النص، واستقبال ذات أخرى أرحب من خلاله (هي ذات القارئ نفسها) تكون بمثابة اقتراح وُجود يستجيب بطريقة أكثر ملاءمة لاقتراح عالم ما"[16]، ونستشف من خلال هذا أن وظيفة الفهم أو وجهة تكون نحو الذات القارئة بالدرجة الأولى، ثم إنّ النص يمنح لهذه الأخيرة ذاتًا أرحب من خلال فهم أوسع، ويمنحها طريقة حياة في هذا الوجود، أو يمنحها طريقة وجود في هذا العالم إن صح التعبير.

إن ما يعرضهُ علينا النص حسب ريكور " هو عالم مقترح، وهو مشروع عالم أستطيع سُكْنَهُ وعرض قدراتي الخاصة فيه، هي قدرات للذات المعطاة في الوجود والتفكير والاستطاعة بوصفها قدرات نموذجية للتحول من النصوص إلى الحياة "[17]. ونلمس هنا دعوة ريكور إلى تطبيق وتجريب قدرات الذات المعطاة والمشكلة من خلال النصوص في الواقع، وهذا يعني أن تمارس الذات في أرض الواقع ذاتها التي تعرفت عليها من خلال النص.

وما يزيد دعوة ريكور إلى التطبيق وضوحًا قوله " إن النصوص لا تستهلك معانيها في توظيف داخلي محض، بل هي رموز ومفاتيح للممارسة والتطبيق ومنفذ للذات القارئة إلى فضائها العملي "[18]، وهو المجال الوحيد الذي تمارس فيه الذات ذاتها.

و بالرجوع إلى قضية فهم الذات لذاتها " فإن هذا يحدث على ضوء النص ومن خلاله، وليس العكس ؛ أي أنها لا تفهم النص على ضوء ذاتها ومن خلالها، ولذلك فإن الذات نتاج عملية الفهم والتأويل وليست منطلقها وأساسها "[19]، إذًا إن بناء الذات القارئة هو نتاج عملية الفهم والتأويل.

و من هنا فإنّنا نلحظ أن أفكار ريكور تتساوق مع أفكار غادامر فهذا الأخير القائل بمقولة التفاعل " أن عملية الفهم تتضمن دائمًا أن لا تنقطع الآراء المسبقة التي تُوجه فهمي المسبق على أن تكون مستخدمة إلى حين أتخلى عنها، وبواسطة التحويل الذي يفرضه

النص على المؤوِل، فيفهم ذاته بكيفية أفضل ويبني ذاتًا أخرى تكون مغايرة وتكون أكمل... وعليه فإن ما يقصده ريكور هو أن فهم الذات لا يمكن أن يتم إلاّ تجاه النص وفي مواجهة النص، هذا الأخير الذي يهيئ شروط بناء ذات مخالفة للذات القارئة "[20]،أو للذات الأولى وهذا يعني أن تغييرًا سيطرأ على القارئ بعد مواجهته للنص؛ لأن هذا النص سيفرض على هذه الذات تحويلاً على مستوى أرائها المسبقة وقيمها وقناعتها وحتى طريقة تفكيرها، ومن ثم بناء ذات مخالفة للذات الأولى .

و كاستنتاج لما سبق فإن انفهام الذات القارئة أمام النص وأثناء قيامها بفعل التأويل يؤدي إلى انفتاح وبناء هذه الذات، وتشكل وعيها بذاتها وبالعالم على نحو غير مسبق .

3- **تملك الذات القارئة للموضوع :**

وضّح ريكور أن الخاصية الأساسية للتأويل تظهر في تعقبه للذات وللغير، لأنه يتطلع دومًا إلى إعادة إنتاج التجارب المعيشة على نحو لافت "[21]، وكذا تميزه بخاصية التملك **L'appropriation**، فمن خلاله يصبح المعنى الذي لم يكن متعينًا في الأصل شيئًا خاصًا بالذات ومتملّكًا لديها، ومن شبه المؤكد أن امتلاك هذا الفهم الخاص بشأن النص بصاحبه امتلاك فهم خاص بشأن الذات المؤوِلة، وهكذا يظهر التأويل كمقاومة للابتعاد عن المعنى القديم ذاتهُ وعن الذات ذاتها (المألوفة والقديمة)، ويُقَرِبُ ما كان شيئًا بعيدًا عن الذات المؤوِّلة ويجعلها تملكه "[22]، فيصبح المعنى المؤَوَّل شيئًا خاصًا بهذه الذات بكل أوجهه من قيم ومعتقدات وأفكار وحتى تجربة العالم التي يحملها، مما يؤدي إلى توسع وثراء وعي الذات القارئة .

و لكن هذا التملك لا يعني أن تمتلك الذات فهمًا وطريقة جديدة في الوجود بشكل نهائي، وهذا ما فنّدهُ ريكور بقوله:" إني لا أزعم أن ذاتًا تُهيمن أصلاً على طريقة وجودها في العالم، تشترع فهمًا قلبيًا لذاتها في النص، بل أزعم أن التأويل هو العملية التي يعطى بها انكشاف أنماط جديدة من الوجود، أو صورة حياة جديدة للذات وقدرة جديدة على معرفتها لذاتها، وبهذه الطريقة يَكُفُّ التملك عن الظهور بوصفه نوعًا من الاستحواذ ونوعا من التشبث بالأشياء لحظة فقدان الذات القارئة للأنانية والنرجسية "[23]، فهذا التملك لا

يجب أن يخلو من المرونة في التعرف على المزيد من القيم والأفكار وكذا احتمالات تغير الذات القارئة بإعادة تشكيل هذه الأخيرة على نحو جديد كل مرة مع كل قراءة.

إننا مطالبون كقراء في نظر ريكور، " بتملك قصدية النص ذاته"[24]، وهذا يعني تعليق ذاتية الكاتب وذاتية القارئ أيضًا، ومن ثم إندماجنا مع العالم الذي يفتحه لنا النص وتملكنا لأشيائه "[25]، وهذا يتطابق مع ما يريده النص، وما يريده النص هو أن يلقي بنا داخل معناه، وأن يجعلنا نأخذ الاتجاه نفسه الذي يضيئهُ لنا. فإن التأويل في نظر ريكور هو فعل النص قبل أن يكون فعلاً ليفسر النص، وما يدعم منطقه هذا هو تقاطعه في نفس المفهوم مع أرسطو، الذي أكد هو الآخر، أن التأويل يعني أصلاً الفعل الذي تمارسه اللغة ذاتها على الأشياء، فهي تتوسط علاقتنا بالأشياء عبر علاماتها ورموزها"[26].

و هكذا توصلنا مما سبق إلى نتيجة مفادها : أن امتلاك الذات القارئة للمعنى هو أحد الدعائم الأساسية في العملية التأويلية الذي يسهم في بناء الذات القارئة، وذلك بامتلاكها فهمًا حقيقيًا عن نفسها بفهمها للنص واكتشافها لمعناه وخوضها في تجربته .

4-عالم السرد وبرمجة الذات القارئة :

يتوجه ريكور إلى تحديد الكيفية التي يتقابل بها عالم النص والعالم الواقعي للقارئ أثناء عملية القراءة، ومدى تأثير عالم النص في رؤية الذات القارئة لعالمها الخاص الواقعي، " فهو يعتبر أن عالم النص عالم متعالٍ بالنسبة لعالم القارئ،ذلك أن المرور من التصور(ويتمثل في الرؤية التي يحملها القارئ اتجاه واقعه) إلى إعادة التصوير (وهو إعادة تشكيل القارئ لرؤيته نحو واقعه) الذي يتطلب مجابهة بين العالمين،العالم القصصي للنص والعالم الواقعي لدى القارئ . وبهذا تتحول ظاهرة القراءة إلى وسيط ضروري لإعادة التصوير؛ حيث تنطلق إستراتيجية الإقناع بدءًا من المؤلف نحو القارئ بوصفه هدفًا لها، وعلى هذا الأساس، يَرُدُّ القارئ بتبنيه للتصور الجديد الذي يقترحه النص "[27].

و يؤكد ريكور من خلال ما سبق أنّ الأدب الحديث هو أدب خطير يستدعي قارئًا جيدًا، أو قارئًا مكافحًا، قارئًا يتجاوب معه، هو القارئ المتشكك، لأن القراءة لم تعد بمثابة رحلة في النص موثوق فيها بصحبة راوٍ موثوق به، لتتحول إلى صراع مع المؤلفِ الضمني، صراع يقود القارئ نحو الرجوع إلى ذاته"[28]،و لكنه صراع إيجابي يجعل الذات القارئة تعود إلى

ذاتها، ثم إن ريكور يدعو إلى التعامل مع الأدب الحديث بنوع من الحذر والشك وذلك لأنه فقد براءته وعفويته.

إنّ النص من وجهة نظر ريكور"يحتوي على مُوجِّهات مُسجلة أصلاً في هذه النصوص هي من الغموض ؛ بحيث إنها تحرر القارئ حين تربكهُ وتضللهُ، ويكون القارئ في النهاية فريسة للإستراتيجية التي اشتغل عليها المؤلف وضحيتها، مادامت هذه الإستراتجية مخفية في أعماق النص"[29]. فهي تقوم بمباغتة القارئ حتى يتشتت انتباهه أمام النص، ويستسلم له فيتحرك ليقوم بمهمة البناء والتشكيل والعديل في ذات القارئ.

و يشير ريكور إلى خطورة وقدرة السرد، حيث إنه يساهم في تشكيل الهوية الثقافية للأفراد من خلال الحدود والمعالم التي يبزرها لهم وعنهم ولأنفسهم، ويقدم ريكور مثالاً عن ذلك في كتابه (الزمان والسرد، الزمان المروي) قصة الشعب اليهودي الذي تعلق بالسرود والحكايات التي رواها عن نفسه حتى أصبحت تعكس طبيعة هذا الشعب ولنقل حددت ورسمت له طبيعة خاصة تموضع ضمنها مثل حكايات المنفى والعودة إلى أرض فلسطين، فأصبح هذا الشعب اليهودي من خلال الحكايات التي رواها عن نفسه يعرف فيما بعد (بِالشعب الإسرائيلي)، مع العلم أن هذه الهوية ليست هويتهم الحقيقية، بل استمدوها من تلقي النصوص التي ألفوها عن أنفسهم "[30]، ومن هذا نستنتج أن السرد يمكنه أن يحدد هوية فرد أو شعب بكامله .

و على هذا الأساس يقودنا تحليل فعل القراءة حسب ريكور إلى القول: " إن ممارسة فعل القراءة لنص سردي تمكن في تجريب فكري نحاول بواسطته بأن نقيم في عوالم غريبة علينا . بهذا المعنى يمارس السرد الخيال أكثر من الإرادة "[31]، ولكن إذا كان الخيال بعدًا أصيلاً من مرجعية النص فإنه لا يقل عن كونه بعدًا أصيلاً في ذاتية القارئ، حيث يقول ريكور: باعتباري قارئًا، فإني لن أعثر على نفسي إلا بتيهي تدخلني القراءة معه في تغيرات الأنا الواسعةُ الخيال"[32].

و في هذه النقطة بالذات يصبح الخيال عاملا مساعدا للذات ؛ لأنّه يعطيها صوراً مختلفة، وإمكانات كثيرة عن وجودها في هذا العالم، وعليه فإن للخيال الذي يحتويه النص دورًا فعالا في بناء الذات القارئة.

و هكذا يتضح لنا أن قراءة السرد تنطوي على زخم تصويري كبير، يحدث ذلك حين تصبح القراءة تحريضًا على الوجود والفعل على نحو مختلف"[33]، وهذا يعني أن القراءة تدفع إلى تغيير شكل الوجود، ومن ثم الفعل السلوكي مخالفة لما كان سائرًا من قبل من خلال تعدد الصور التي تعطيها للذات القارئة عن الوجود وعن السلوك والقيم والأفكار.

ومن هذا المنطلق يتبين لنا أن السرد من وجهة نظر ريكور ليس مجردًا من أي بعد معياري أو تقييمي أو توجيهي " ويظهر ذلك من خلال الاستراتيجيات الإقناعية التي يستعملها الراوي، إنها تستهدف أن تفرض على القارئ نظرة إلى العالم ليست حيادية أخلاقيًا أبدًا، بل هي تستحثه ضمنًا أو صراحة على تقييم جديد للعالم ولنفسه أيضًا"[34]، فيتبين للقارئ موقعه من العالم، ومن ثم يمارس السرد على القارئ فعل الإقناع بالتموقف اتجاه العالم، وهذا شكل من أشكال البناء في الذات القارئة بتوجيهها في واقعها الفعلي.

بهذا المعنى فإن السرد عند ريكور ينتمي أصلاً إلى الميدان الأخلاقي بفضل دعواه، ويبقى القارئ هو الفاعل وهو المشكل للفعل - الأخلاقي - من خلال اختياره بين المقترحات الأخلاقية التي تنقلها القراءة إلى الصدارة "[35]، وهكذا فإن السرد لا يغدو إلا أن يكون ميدانًا لتلقين الأخلاق للقارئ، وبالتالي فإن البناء في الذات القارئة من هذا المنطلق هو بناء أخلاقي، أي البناء في أخلاق هذه الذات.

وعليه فإننا نستنتج أن للسرد أو النص السردي دورًا مهمًا في بناء الذات القارئة، وذلك من خلال تشكيل الهوية الثقافية للأفراد، ومن ثمّ إن عالم السرد له قدرة على برمجة الذات القارئة وضبط قيمها وعاداتها وسلوكها، من خلال التوجهات والاستراتيجيات الضمنية التي تجعل القارئ يقنع ويخضع ويذعن لمضامين هذا العالم السردي، فيصبح هو المثال وهو الأساس الذي على ضوئه ستتصرف وتعيش وتفعل الذات القارئة في واقعها الحقيقي .

5- الترجمة : معرفة الذات من معرفة الآخر:

باعتبار الترجمة هي أحد أشكال الفعل التأويلي أو العملية التأويلية فهي مدعاة لحدوث التأثير في ذات المترجم، ومن ثم في ذوات كل القراء الذين يقرؤون النص المترجم، حيث

ينطلق ريكور من" أن الترجمة عملية تأويل وتفسير **interprétation** تباشر فهم النص ومساءلته بواسطة فعل القراءة، وهو فعل هيرمينوطيقي بالأساس "[36].

و يذهب ريكور إلى أن الترجمة مهما تكن تقنية فإنها في نهاية المطاف عبارة عن تأويل، وبهذا يغدو كل مترجم مؤوِلاً "[37]. وبالتالي فإن ما يحدث من تأثير جراء العملية التأويلية يحدث جراء فعل الترجمة، ثم إن لجوء ريكور إلى عنصر الترجمة كان بدافع التمثيل على التأثير الحي الذي يتركه فعل التأويل في ذات المترجم باعتباره قارئًا بالدرجة الأولى .

و على هذا الأساس فإن العلاقة القائمة بين فعل الترجمة وبناء الذات القارئة تتمثل في كون الترجمة سببًا في فهم الآخر - الآخر الأجنبي خارج اللغة والثقافة الخاصة بذات المترجم - ومن ثم فهم ذات المترجم لذاتها وتعرف هذه الذات على ذاتها يكون بالتعرف على الآخر وبفهمه من خلال ترجمة نصوصه، ذلك أن " مهمة المترجم حسب ريكور لا تكون في نقل المعنى بِحَرفيته من لغة إلى لغة أخرى بقدر ما يكون دوره في تيسير عملية الفهم والتواصل بين الشعوب، وهذا من منطلق فهم الذات لذاتها، مما يستند أساسًا إلى فهم هذه الذات للآخر الذي يشارك في الوجود والحياة "[38].

إن الذات القارئة والذات الإنسانية بصفة عامة لا يمكنها أن تعيش في هذا الوجود متفردةً عن باقي الذوات الأخرى، فهي في تفاعل وتعايش وتناغم مستمر مع الآخر وهذا ما دفع ريكور إلى التأكيد " أن ذاتية الذات تحتوي ضمنيًا الغيرية إلى درجة حميمية حتى إنه لا يعود من الممكن التفكير في الذات من دون الآخر، فالذات لا يكتمل وجودها إلا إذا تواجد الآخر كشرط لفاعليتها، لأن الذات لا يمكن أن ترى ذاتها إلا من خلال الآخر"[39] . والترجمة هي منفذ لمعرفة الآخر، وبالتالي اكتمال وجود الذات ومعرفتها بذاتها.

وتبين لنا مما سبق أن عملية الترجمة خير دليل على بناء الذات القارئة، لما تحدثه من أثر في ذات المترجم من بناء وتعديل وفهم ومعرفة هذا الأخير لنفسه ولذاته في وجوده الفعلي الواقعي. ذلك أن اكتشاف الآخر من خلال القراءة له،أي لآثاره من النصوص يكون سببًا في اكتشاف الذات لذاتها والتعرف على موقعها، وهكذا تعتبر الترجمة بثابت وسيلة تُعَرِف الذات على ذاتها بتعرفها على آخر .

وهكذا يتراءى لنا " أن ريكور استطاع أن يبين التأثير الذي تمارسه مشاركة الذات القارئة في التأويل على التجربة الخاصة لديها، وعلى مفاهيمها ومسلماتها القبلية: أي أن الذات بعيدًا أن تسقط ذاتها في النص خلال العملية التأويلية، فإنها هي في حد ذاتها نتاج التقائها بالنص، وهكذا تصبح عملية التأويل مجالاً وفرصة معرفة وبناء الذات على نحو أفضل وأكمل "[40].

وبهذه الكيفية نخلص إلى أن الفكر الهرمينوطيقي عند ريكور" يتعلق بمهمة إزالة الأصنام*؛ أي أن تصبح على وعي نقدي بأنفسنا عندما نسقط رغباتنا وبناءاتنا الذهنية على النصوص، وبهذا الوعي النقدي لا تعود إسقاطاتنا تخاطبنا على أنها آخر"[41] ، وهذا من صميم المعرفة الذاتية الخالصة للذات بذاتها.

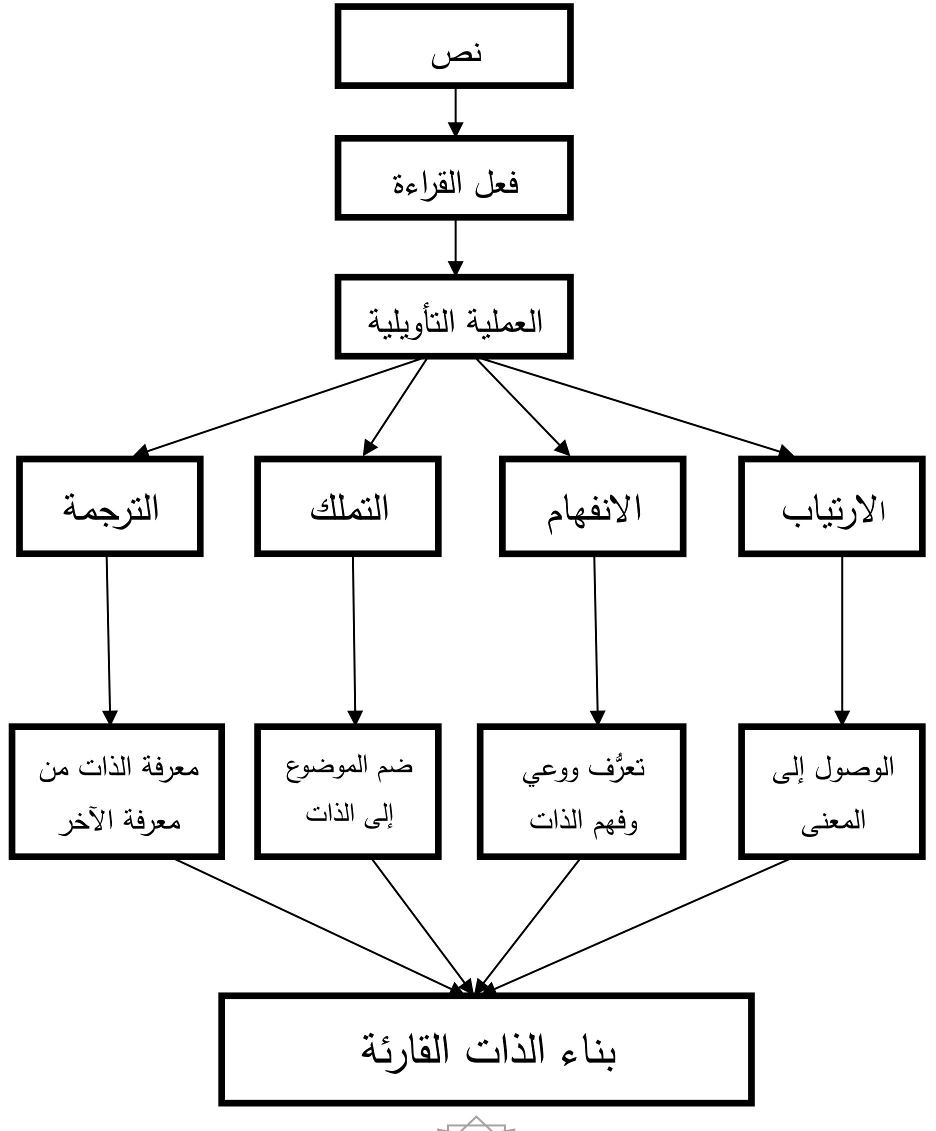
لقد كان مشروع ريكور يهدف إلى الإمساك بالإنسان في كليته ؛ أي من جهة من ما هو عَارِفْ وفَاعِل ومُنْفَعل"[42] في هذا الوجود فاهتم ريكور بالعملية التأويلية التي تصبغُ وتُلَوِنُ وتُؤثر على شكل كينونة وذات هذا الإنسان في العالم، من حيث أنه القارئ .

و ينتهي ريكور إلى حل المشكلة بإعادة صياغة مفهوم الإنسان وفق مفهوم آخر للذات يقدمها الموضوع أو المعنى الموجود في النص، وبالتالي يمكن اعتبار ريكور فيلسوف للذات، حيث إن تأمل الذات ومحاولة استرجاعها وكلياتها يظل الهدف الأساسي لكل مسار هرمينوطيقي لديه "[43]، وهذا ما يعكس طموحه إلى بناء ذات قارئة كاملة أو مثالية . ونستنتج من خلال ما سبق أن ريكور باعتباره فيلسوفا للذات قد أعطى مفهومًا نظريًا توصيفيًا محكمًا حول الذات، خلال سيرورة القراءة، وما يطرأ عليها من تحول وتأثر وتفاعل مرتكزًا في ذلك على تحليل العملية التأويلية باعتبارها وسيطا بين الذات وذاتها .

و يتبين لنا من خلال جهود ريكور السابقة كيفية بناء الذات القارئة من خلال تعداد الحالات والانطباعات التي يثيرها النص فينا، بداية من مبدأ الارتياب إلى مبدأ التملك ثم الإنفهام، وكذا برمجة عالم السرد للذات القارئة وإثارته للنقطة التي تندرج فيها الترجمة ضمن التأويل، ودورها في تنوير الذات القارئة بالآخر فتكتمل معرفتها بنفسها . والمتفحص لموقف ريكور من الأدب بشكل عام وعالم السرد بشكل خاص وإثارته لمسألة خطورة هذا

العالم، يجعلنا نخلص إلى أنه يؤمن بقدرات الأدب وآثاره الهائلة على تحديد وتشكيل وبناء ووجود الهوية الثقافية والذاتية لدى القارئ بشكل فعلي .

كما أن فهم وتأويل الذات القارئة للنص، ما هو في الأساس إلا تطبيق ذلك النص على نفسها، وبالتالي فإن كل ممارسة تأويلية تتضمن تطبيقا معينًا على الذات المؤوِلة لذلك نجد ريكور دائم الإلحاح على التطبيق لأنه المجال الفعلي الواقعي الذي تظهر فيه الذات القارئة بحلة الذات الجديدة . و يمكننا تمثيل هذه النتائج عبر المخطط الآتي :



الهوامش:

[1]– تعني كلمة الهرمينوطيقا l'herméneutique علم أو فن التأويل وتعني حسب شلايرماخر فن امتلاك كل الشروط الضرورية للفهم، والواقع أن مفهومها ينطوي على عدة عمليات تأويلية الممارسة على النصوص كالفهم والتفسير والترجمة والشرح والتأويل والتطبيق.(ينظر عبد الكريم شرفي،من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط ، 1 ، 1428هـ/ 2007م، ص 17 18) واشتقاقها الأصلي من كلمة لاتينية جاءت من لفظ hermenia من هرمس hermès وتعني الإله الوسيط بين الآلهة والناس، يفسّر لهم ويشرح الرمز ويفك الطلاسم (ينظر بومدين بوزيد، الفهم والنص دراسة في المنهج من شلاير ماخر إلى دلتاي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008م، ص 13).

2_ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، مرجع سابق، ص 50.

3_ عبد العزيز ظليمات، فعل القراءة، بناء المعنى وبناء الذات، قراءة في بعض أطروحات فولفغانغ إيزر، ضمن: نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 24، الدار البيضاء، د . ط، 1993 م ص 50.

4_ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، مرجع سابق، ص 50.

5_ ينظر: بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، تر:محمد برادة، حسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، مصر، ط1، 2001 م، ص 89.

6_ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، مرجع سابق، ص 50.

*- نيتشوية نسبة لنيتشه ، فرويدية نسبة إلى سيغموند فرويد محلّل نفسي، وماركسية نسبة إلى كارل ماركس، صاحب نظرية الانعكاس

7_ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، مرجع سابق، ص 51.

8_ المرجع نفسه ، ص 51.

9_ عادل مصطفى، فهم الفهم مدخل إلى الهرمنوطيقيا نظرية التأويل من أفلطون إلى جادامر، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2007م، ص 465.

10_ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، مرجع سابق، ص 51.

11_ المرجع نفسه ص51

12_ ينظر : ناصر عمارة، بول ريكور ومسارات التأويل، جامعة مستغانم،الجزائر، الموقع philo2004@maktoob.com، تاريخ النشر : 2011/03/26م، تاريخ التصفح : 2016/02/11 م.

13_ ناصر عمارة، بول ريكور ومسارات التأويل، مرجع سابق.

14_ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، مرجع سابق، ص 52.

15_ بول ريكور، من النص إلى الفعل، مرجع سابق، ص 89.

16_ المرجع نفسه، ص 90

17_ ناصر عمارة، بول ريكور ومسارات التأويل، مرجع سابق .

18_ المرجع نفسه .

19_ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، مرجع سابق، ص 52.

20_ ينظر: المرجع نفسه ، ص 52.

21_ بول ريكور، من النص إلى الفعل، مرجع سابق، ص 116.

22_ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، مرجع سابق، ص 52، 53.

23_ بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، ترجمة : سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006م، ص 147، 148.

24_ عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، مرجع سابق، ص 53.

25- حسن بن حسن، النظرية التأويلية عند ريكور، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، المغرب، ط1.1992، م، ص 46.

26_ ينظر: عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، مرجع سابق، ص 53.

27_ ينظر: بول ريكور، الزمان والسرد، الزمان المروي، ترجمة : سعيد الغانمي، مراجعة: جورج زيتاني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان،ج 3، ط1، 2006، ص 239.

28_ المرجع نفسه، ص 245.

29_ بول ريكور، الزمان والسرد، الزمان المروي، المرجع السابق، ص 263.

30_ ينظر: المرجع نفسه، ص 373.

31_ المرجع نفسه،ص 375.

32_ بول ريكور، من النص إلى الفعل، مرجع سابق، ص 90.

33_ بول ريكور، الزمان والسرد، الزمان المروي، مرجع سابق، ص 375.

34_ المرجع نفسه، ص 375.

35_ المرجع نفسه، ص 376.

36_ حسين راشدي، بول ريكور والترجمة، الترجمة وظيفة إنسانية، مجلة التواصل في اللغة والثقافة والأدب، جامعة سطيف 2، قسم اللغة والأدب العربي، عدد 31، سبتمبر 2012 م، ص 38.

37_ بول ريكور، عن الترجمة، ترجمة، ترجمة : حسين خمري، منشورات الاختلاف، ط1، 2008 م، ص 11، 12.

38_ ينظر: حسين راشدي، بول ريكور والترجمة، مرجع سابق، ص 37.

39_ فايزة شرماط، فلسفة الأخلاق عند بول ريكور، مذكرة ماجستير، إشراف : فتيحة زرداوي، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية آداب والعلوم الإنسانية، قسم الفلسفة، 2010/2009، ص 10، 11.

40_ ينظر: عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، مرجع سابق، ص 85، 86.

*- الأصنام يقصد بها هنا: المعتقدات الذهنية الراسخة والقديمة البالية التي تشوب معرفة الذات بذاتها .

41_ عادل مصطفى، فهم الفهم، مرجع سابق، ص 462.

42_ حسن بن حسن، النظرية التأويلية عند ريكور، مرجع سابق، ص 16.

43_ ناصر عمارة، بول ريكور ومسارات التأويل، مرجع سابق.

*** *** ***